فى القرآن ، قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ من دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ... الآية [1] .

وهكذا يريد هؤلاء الضالون المتحيرون أن يفعلوا بالمؤمنين ، يريدون أن يدعوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وهى المخلوقات والأوثان والأصنام وكل ما عُبِدَ من دون الله ، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم ، يردونهم عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، ويصيروا حائرين ضالين كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا ، وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [2] أى يحارون ويترددون ، وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [3] فأمر بأن نسأله هداية الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين . وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم ويمدحون طريق أهل الضلال والحيرة ، مخالفة لكتب الله ورسله ، ولما فطر الله عليه عباده من العقول والألباب .

* * *

فصل

فى ذكر بعض ألفاظ ابن عربى التى تبيِّن ما ذكرنا من مذهبه ، فإنَّ أكثر الناس قد لا يفهمونه

قال فى فص يوسف - بعد أن جعل العالَم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض فى التشبيه : « فكل ما تدركه فهو وجود الحق فى أعيان الممكنات ، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل ، كذلك لا يزول عنه

---

(١) الأنعام : ٧١ (٢) الأنعام : ١١٠ (٣) الفاتحة : ٦ - ٧

باختلاف الصور اسم العالَم أو اسم سوى الحق ، فمن حيث أحدية كونه ظلاً هو الحق ، لأنه الواحد الأحد ، ومن حيث كثرة الصور هو العالَم ، فتفطن وتحقق ما أوضحناه لك . وإذا كان الأمر على ما ذكرته لك فالعالَم متوهم ما له وجود حقيقى ، وهذا معنى الخيال ، أى خُيِّلَ لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الوجود الحق ، وليس كذلك فى نفس الأمر . ألا تراه فى الحس متصلاً بالشخص الذى امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال ، لأنه يستحيل على الشئ الانفكاك عن ذاته ، فاعرف عينك ومَن أنت وما هويتك ؟ وما نسبتك إلى الحق وبما أنت حق وبما أنت عالم وسوى وغير » وما شاكل هذه الألفاظ .

وقال فى أول الفصوص بعد « فص حكمة إلهية فى كلمة آدمية » : وهو « فص حكمة نفثية ، فى كلمة شيثية » وقد قسم العطاء بأمر الله ، وإنما يكون عن سؤال وعن غير سؤال وذكر القسم الذى لإنسان [1] لأن شيثاً هو هبة الله » ... إلى أن قال : « ومن هؤلاء مَن يعلم أنَّ علم الله به فى جميع أحواله هو ما كان عليه فى حال ثبوت عينه قبل وجودها ، ويعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به ، وهو ما كان عليه فى حال ثبوته ، فيعلم علم الله به من أين حصل ، وما ثَمَّ صنف من أهل الله أعلا وأكشف من هذا الصنف ، فهم الواقفون على سر القَدَر ، وهم على قسمين : منهم مَن يعلم ذلك مجملاً ، ومنهم مَن يعلم ذلك مفصلاً ، والذى يعلمه مفصلاً أعلا وأتم من الذى يعلمه مجملاً ، فإنه يعلم ما تعيَّن فى علم الله فيه ، إما بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به ، وإما بأن يكشف له عن عينه الثابتة وعن انتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى ، وهو أعلا ، فإنه يكون فى علمه بنفسه بمنزلة علم الله به ، لأنَّ

---

(١) كذا فى الأصل وهو محرَّف أو سقط منه شىء ، والكلام فى « فص شيث » هذا يقتضى أنَّ المراد أول إنسان حصل له العلم بالنفث الملكى فى الروع هو « شيث » وهو علة تسميته . والشيخ أشار إلى مقدمة هذا الفص إشارة مجملة لأنَّ غرضه ما بعدها .

الأخذ من معدن واحد ، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هى من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك - أى على أحوال عينه - فإنه ليس فى وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة التى تقع صورة الوجود عليها أن يطلع فى هذه الحال على إطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة فى حال عدمها ، لأنها نسب ذاتية لا صورة لها ، فبهذا القَدْر نقول : إنَّ العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة فى إفادتها العلم ، ومن هنا يقول : « الله حتى نعلم » وهى كلمة محققة المعنى ، ما هى كما يتوهم مَن ليس له هذا المشرب ، وغاية المنزه أن يجعل ذلك الحدوث فى العلم للتعلق ، وهو أعلا وجه يكون للمتكلم يعقله فى هذه المسألة ، لولا أنه أثبت العلم زائداً على الذات فجعل التعلق له لا للذات ، وبهذا انفصل عن المحقق من أهل الله صاحب الكشف والوجود » .

• قول ابن عربى فى الأعطيات الذاتية والأسمائية :

« ثم نرجع إلى الأعطيات فنقول : إنَّ الأعطيات إما ذاتية أو أسمائية ، فأما المنح والهبات والعطايا الذاتية فلا تكون أبداً إلا عن تجلى إلهى ، والتجلى من الذات لا يكون أبداً إلا لصورة استعداد العبد المتجلىَ له ، وغير ذلك لا يكون ، فإذن المتجلَى له ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق وما رأى الحق ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه ، كالمرآة فى الشاهد إذا رأيتَ الصور فيها لا تراها مع علمك أنك ما رأيتَ الصورِ أو صورتك إلا فيها ، فأبرز الله ذلك مثالاً نصبه لتجليه الذاتى ، ليعلم المتجلَى له أنه ما رآه ، وما ثَمَّ أقرب ولا أشبه بالرؤية والتجلى من هذا ، واجهد فى نفسك عند ما ترى الصورة فى المرآة أن ترى جُرم المرآة لا تراه أبداً ألبتة ، حتى إنَّ بعض مَن أدرك مثل هذا فى صور المرئى ذهب إلى أنَّ الصورة المرئية بين بصر الرائى وبين المرآة ، هذا أعظم ما قدر عليه من العلم ، والأمر كما قلناه وذهبنا إليه . وقد بيَّنا

هذا فى « الفتوحات المكية » ، وإذا ذقتَ هذا ذقتَ الغاية التى ليس فوقها غاية فى حق المخلوق ، فلا تطمع ولا تتعب نفسك فى أن ترقى أعلا من هذا الدرج فما هو ثَمَّ أصلاً وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، وليست سوى عينه فاختلط الأمر وانبهم ، فمنا مَن جهل فى علمه فقال : « والعجز عن درك الإدراك إدراك » [1] ومنا مَن علم فلم يقل مثل هذا القول وهو أعلا القول ، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلا عالِم باللّه » .

• تفضيل ابن عربى نفسه على الصدِّيق مطلقاً ، وعلى النبى صلى اللّه عليه وسلم مقيداً :

« وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى إنَّ الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . والمرسَلون من حيث كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف مَن دونهم من الأولياء ، وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما إنه من وجه يكون أعلا . وقد ظهر فى ظاهر شرعنا مايؤيد ماذهبنا إليه فى فضل عمر فى أسارى بدر بالحكم فيهم ، وفى تأبير النخل . فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم فى كل شئ وفى كل مرتبة . وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم باللّه ، هنالك مطلبهم ، وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها ، فتحقق ما ذكرناه » .

---

(١) هذا القول منسوب إلى الصدِّيق الأكبر أبى بكر رضى اللّه عنه ، وابن عربى يفضِّل نفسه عليه فى العلم باللّه كما ترى بعده ويدَّعى أنه مساوٍ لرسول اللّه ﷺ بل يفضِّل نفسه عليه من بعض الجهات .

• بيان ما فى هذا الفص من الكفر بالألوهية والربوبية والإزراء بالرسالة :

« ولما مثّل النبى ﷺ النبوّة بالحائط من اللّبن وقد كمل سوى موضع لَبِنة فكان النبى ﷺ تلك اللّبِنة ، غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لَبِنة واحدة . وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية ما مثّل به رسول الله ﷺ فيرى فى الحائط موضع لَبِنتين واللّبن من ذهب وفضة فيرى اللّبِنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لَبِنة ذهب ولَبِنة فضة ، فلا بد من أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللّبِنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللّبِنتين ، ليكمل الحائط .

« والسبب الموجب لكونه رآها لَبِنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر ، وهو موضع اللّبِنة الفضة وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله تعالى فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ، لأنه رأى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللّبِنة الذهبية فى الباطن ، فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه المَلَك الذى يوحى به إلى الرسول .

« فإن فهمتَ ما أشرتُ به فقد حصل لك العلم النافع ، فكل نبى من لدن آدم إلى آخر نبى ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين وإن تأخر وجود طينته ، فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله ﷺ : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » ، وغيره من الأنبياء ما كان نبياً إلا حين بُعِث ، . وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين ، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولى الحميد .

« فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية مثل نسبة الأنبياء والرسل معه ، وأنه الولى الرسول النبى . وخاتم الأولياء الولى الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد المراتب وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد ﷺ ، مقدّم الجماعة ، وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة . فعين بشفاعته حالاً خاصاً

ما عمّم . وفى هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الإلهية . فإنّ الرحمن ما شفع عند المنتقم فى أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين ، ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص .

فمَن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام » أ هـ .

*

● رد مذهب ابن عربى من وجوه :

فهذا الفص قد ذكر فيه حقيقة مذهبه التى يبنى عليها سائر كلامه فتدبر مافيه من الكفر الذى ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ (١) وما فيه من جحد خلق الله وأمره ، وجحود ربوبيته وألوهيته وشتمه وسبه ، وما فيه من الإزراء برسله وصدِّيقيه والتقدم عليهم بالدعاوى الكاذبة ، التى ليس عليها حجة ، بل هى معلومة الفساد بأدنى عقل وإيمان ، وأيسر ما يُسمع من كتاب وقرآن ، وجعل الكفار والمنافقين والفراعنة هم أهل الله وخاصته أهل الكشوف .. وذلك باطل من وجوه :

أحدها : أنه أثبت له عيناً ثابتة قبل وجوده ولسائر الموجودات وأنّ ذلك ثابت له ولسائر أحواله ، وكل ما كان موجوداً من الأعيان والصفات والجواهر والأعراض فعينه ثابتة قبل وجوده . وهذا ضلال قد سبق إليه كما تقدم .

الثانى : أنه جعل علم الله بالعبد إنما حصل له من علمه بتلك العين الثابتة فى العدم التى هى حقيقة العبد ، لا من نفسه المقدسة ، وأنّ علمه بالأعيان الثابتة فى العدم وأحوالها تمنعه أن يفعل غير ذلك ، وأنّ هذا هو سر القَدَر . فتضمن هذا وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان وغناها عنه ، ونفى ما استحقه بنفسه من كمال علمه وقُدرته ، ولزوم التجهيل والتعجيز ، وبعض ما فى هذا

---

(١) مريم : ٩٠

الكلام المضاهاة لما ذكره الله عمن قال : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ... الآية [1] ، فإنه جعل حقائق الأعيان الثابتة فى العدم غنية عن الله فى حقائقها وأعيانها ، وجعل الرب مفتقراً إليه فى علمه بها ، فما استفاد علمه بها إلا منها ، كما يستفيد العبد العلم بالمحسوسات ممن إدراكه لها ، مع غنى تلك المدركات عن المدرك . والمسلمون يعلمون أنَّ الله عالم بالأشياء قبل كونها بعلمه القديم الأزلى الذى هو من لوازم نفسه المقدسة لم يستفد علمه بها منها: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2] فقد دلت هذه الآية على وجوب علمه بالأشياء من وجوه انتظمت البراهين المذكورة لأهل النظر والاستدلال القياسى العقلى من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم .

أحدها : أنه خالق لها والخلق هو الإبداع بتقدير ، وذلك يتضمن تقديرها فى العلم قبل كونها فى الخارج .

الثانى : أنَّ ذلك مستلزم للإرادة والمشيئة ، والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام .

الثالث : أنها صادرة عنه وهو سببها التام ، والعلم بأصل الأمر وسببه يوجب العلم بالفرع المسبب ، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه .

الرابع : أنه فى نفسه لطيف يدرك الدقيق ، خبير يدرك الخفى ، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام ، فهو فى علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها كما هو غنى بنفسه فى جميع صفاته . ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها وسمع كلام عباده ونحو ذلك فإنما يدرك ما أبدع وما خلق وما هو مفتقر إليه ومحتاج من جميع وجوهه ، لم يحتج فى علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة . فلا يجوز القول بأنَّ علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة الغنية فى ثبوتها عنه .

---

(١) آل عمران : ١٨١ (٢) الملك : ١٤

• ما تضمنه كلامه من جحود قُدرة الرب وتسميته بسر القَدَر :

وأما جحود قُدرته فلأنه جعل الرب لا يقدر إلا على تجليه فى تلك الأعيان الثابتة فى العدم الغنية عنه ، فقُدرته محدودة بها مقصورة عليها مع غناها عنه وثبوت حقائقها بدونه . وهذا عنده هو السر الذى أعجز الله أن يقدر على غير ما خلق ، فلا يقدر عنده على أن يزيد فى العالَم ذَرَّة ولا ينقص منه ذَرَّة ، ولا يزيد فى المطر قَطرة ولا ينقص منه قَطرة ، ولا يزيد فى طول الإنسان ولا ينقص منه ، ولا يغيِّر شيئاً من صفاته ولا حركاته ولا سكناته ، ولا ينقل حجراً عن مقره ، ولا يحول ماءً عن ممره ، ولا يهدى ضالاً ولا يضل مهتدياً ، ولا يحرك ساكناً ولا يسكن متحركاً . ففى الجملة لا يقدر إلا على ما وجد ، لأن ما وجد فعينه ثابتة فى العدم ولا يقدر على أكثر من ظهوره فى تلك الأعيان .

• ما انفرد به ابن عربى من الكفر الذى لم يُسبق إليه :

وهذا التجلى والتعجيز الذى ذكره وزعم أنه هو سر القَدَر وإن كان قد تضمن بعض ما قاله غيره من الضلال ففيه من الكفر ما لا يرضاه غيره من الضالين . فإنَّ القائلين بأنَّ المعدوم شئ ، يقولون ذلك فى كل ممكن كان أو لم يكن ، ولا يجعلون علمه بالأشياء مستفاداً من الأشياء قبل أن يكون وجودها ، ولا خلقه وقُدرته مقصورة على ما علمه منها ، فإنه يعلم أنواعاً من الممكنات لم يخلقها . فمعلومه من الممكنات أوسع مما خلقه ، ولا يجعلون المانع من أن يخلق غير ما خلق هو كون الأعيان الثابتة فى العدم لا تقبل سوى هذا الوجود ، بل يمكن عندهم وجودها على صفة أخرى ، هى أيضاً من الممكن الثابت فى العدم . فلا يفضى قولهم لا إلى تجهيل ولا إلى تعجيز من هذا الوجه . وإنما قد يقولون : المانع من ذلك أنَّ هذا هو أكمل الوجوه وأصلحها ، فعلمه بأنه لا أكمل من هذا يمنعه أنْ يريد ما ليس أكمل بحكمته فيجعلون المانع أمراً يعود إلى نفسه المقدسة حتى لا يجعلونه ممنوعاً من غيره ، فأين مَن لا يجعل له مانعاً من غيره ولا رادّ لقضائه ممن يجعله ممنوعاً مصدوداً ؟ وأين مَن يجعله عالِماً بنفسه ممن

يجعله مستفيداً للعلم من غيره ؟ وممن هو غنى عنه ؟ هذا مع أنَّ أكثر الناس أنكروا على مَن قال : ليس فى الإمكان أبدع من هذا العالَم .

الثالث : أنه زعم أنَّ من الصنف الذى جعله أعلا أهل اللّه مَن يكون فى علمه بمنزلة علم اللّه ، لأنَّ الأخذ من معدن واحد إذا كُشفَ له عن أحوال الأعيان الثابتة فى العدم فيعلمها من حيث علمها اللّه ، إلا أنه من جهة العبد عناية من اللّه سبقت له هى من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه اللّه على ذلك فجعل علمه وعلم اللّه من معدن واحد .

الرابع : أنه جعل اللّه عالماً بها بعد أن لم يكن عالماً واتبع المتشابه الذى هو قوله : « حتى يعلم » وزعم أنها كلمة محققة المعنى بناءً على أصله الفاسد أنَّ وجود العبد هو عين وجود الرب ، فكل مخلوق عَلِمَ ما لم يكن علمه فهو اللّه علم ما لم يكن علمه . وهذا الكفر ما سبقه إليه كافر ، فإنَّ غاية المكذِّب بقَدَر اللّه أن يقول : إنَّ اللّه عَلِمَ ما لم يكن عالماً ، أما أنه يجعل كل ما تجدد لمخلوق من العلم فإنما تجدد للّه ، وأنَّ اللّه لم يكن عالماً بما علمه كل مخلوق حتى علمه ذلك المخلوق .

الخامس : أنه زعم أنَّ التجلى الذاتى بصورة استعداد المتجلى ، والمتجلَى له ما رأى سوى صورته فى مرآة الحق ، وأنه لا يمكن أن يرى الحق مع علمه بأنه ما رأى صورته إلا فيه ، وضرب المثل بالمرآة فجعل الحق هو المرآة والصورة فى المرآة هى صورته .

● ملخص مذهب ابن عربى مع بيان كفره وبطلانه :

وهذا تحقيق ما ذكرته من مذهبه : أنَّ وجود الأعيان عنده وجود الحق ، والأعيان كانت ثابتة فى العدم ، فظهر فيها وجود الحق بالمتجلَى له ، والعبد لا يرى الوجود مجرداً عن الذوات ، ما يرى إلا الذوات التى ظهر فيها الوجود ، فلا سبيل له إلى رؤية الوجود أبداً . وهذا عنده هو الغاية التى ليس فوقها غاية فى حق المخلوق وما بعده إلا العدم المحض ، فهو مرآتك فى رؤيتك نفسك ، وأنت مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها . وذلك لأنَّ العبد لا يرى نفسه

التى هى عينه إلا فى وجود الحق الذى هو وجوده ، والعبد مرآته فى رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ، لأنَّ أسماء الحق عنده هى النسب والإضافات التى بين الأعيان وبين وجود الحق ، وأحكام الأسماء هى الأعيان الثابتة فى العدم ، وظهور هذه الأحكام بتجلى الحق فى الأعيان ، والأعيان التى هى حقيقة العيان هى مرآة الحق التى بها يرى أسماءه وظهور أحكامها ، فإنه إذا ظهر فى الأعيان حصلت النسبة التى بين الوجود والأعيان وهى الأسماء ، وظهرت أحكامها وهى الأعيان ، ووجود هذه الأعيان هو الحق ، فلهذا قال : وليست سوى عينه ، فاختلط الأمر وانبهم .

فتدبر هذا من كلامه وما يناسبه لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه ، وأنَّ ذات الحق عنده هى نفس وجود المخلوقات ، وأسماءه هى النسب التى بين الوجود والأعيان ، وأحكامها هى الأعيان . لتعلم كيف اشتمل كلامه على الجحود للّه ولأسمائه ولصفاته وخلقه وأمره ، وعلى الإلحاد فى أسماء اللّه وآياته، فإنَّ هذا الذى ذكره غاية الإلحاد فى أسماء اللّه وآياته - الآيات المخلوقة والآيات المتلوة - فإنه لم يثبت له اسماً ولا آية ، إذ ليس إلا وجوداً واحداً وذاك ليس هو اسماً ولا آية ، والأعيان الثابتة ليست هى أسماءه ولا آياته ، ولما ثبت شيئين فرَّق بينهما الوجود والثبوت ، وليس بينهما فرق ، اختلط الأمر عليه وانبهم .

• دعوى ابن عربى أنَّ المرسلين يأخذون من مشكاته :

وهذا حقيقة قوله وسر مذهبه الذى يدَّعى أنه به أعلم العالم باللّه ، وأنه تقدَّم بذلك على الصدِّيق الذى جهل فقال : العجز عن الإدراك إدراك ، وتقدَّم به على المرسلين الذين علموا ذلك من مشكاته [1] ، وفيه من أنواع الكفر والضلال

---

(١) لأنه يدَّعى أنه هو ختم الولاية ، وأنَّ خاتم الولاية أعلى من خاتم النبوَّة فى الباطن ، وإن كان يتبعه فى الظاهر ، إلى آخر ما تقدم ، وغايته أنه بلغ من غروره بما حذقه من الثرثرة بخلط النظريات الفلسفية بالخيالات الصوفية إن حاول إقناع قراء فصوصه بأنه رب العالمين من حيث أنه أكمل مظهر للخلق الذى هو عين الحق ، وما الرب عنده إلا نسبة إضافية بين ما يسمى حقاً وما يسمى خلقاً وهما فى نفس الأمر بشىء واحد .

ما يطول عدها . منها : الكفر بذات الله إذ ليس عنده إلا وجود المخلوق ، ومنها : الكفر بأسماء الله وأنها ليست عنده إلا أمور عدميه ، فإذا قلنا : ﴿ الحَمْدُ للّه رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فليس الرب عنده إلا نسبة إلى .....[1] .

السادس : أنه قال : « واختلط الأمر وانبهم » ، أو هو على أصله الفاسد مختلط منبهم ، وعلى أصل الهدى والإيمان متميز متبين ، قد بيَّن الله بكتابه الحق من الباطل والهدى من الضلال .

• كذب الجاهلين على آل البيت والصحابة فى النقل :

قال : « فمنا مَن جهل علمه فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك » ، وهذا الكلام مشهور عندهم نسبته إلى أبى بكر الصدِّيق ، فجعله جاهلاً وإن كان هذا اللفظ لم يُنقل عن أبى بكر ولا هو مأثور عنه فى شئ من النقول المعتمدة ، وإنما ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الشكر » نحواً من ذلك عن بعض التابعين غير مسمى ، وإنما يرسل إرسالاً من جهة مَن يكثر الخطأ فى مراسليهم ، كما يحكون عن عمر أنه قال : « كان النبى ﷺ وأبو بكر إذا تخاطبا كنتُ كالزنجى بينهما ». وهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة ، وإنما الذى فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى قال : خطبنا رسول ﷺ على المنبر فقال : « إنَّ عبداً خيَّره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله » ، فبكى أبو بكر فقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا - أو كما قال - فجعل الناس يقولون : عجباً لهذا الشيخ ، يبكى أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيَّره الله بين الدنيا والآخرة . فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به . وكان أبو بكر هو أعلمهم بمراد رسول ﷺ ومقاصده فى كلامه . وإن كانوا كلهم مشتركين فى فهمه .

وهذا كما فى الصحيح أنه قيل لعلىٍّ عليه السلام : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ - وفى لفظ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده

---

(١) بياض فى الأصل يُعلم ما سقط منه مما تقدم .

إلى الناس ؟ فقال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النَسمة ، إلا فهماً يؤتيه اللّه عبداً فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة » [1] ، وبهذا ونحوه من الأحاديث الصحيحة استدل العلماء على أنَّ ما يُذكر عن علىّ وأهل البيت من أنهم اختُصوا بعلم خصَّهم به النبى ﷺ دون غيرهم كذب عليهم ، مثل ما يذكر من الجفر والبطاقة والجدول ، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم ، فإنه قد كُذِبَ على جعفر الصادق رضى اللّه عنه ما لم يُكذَب على غيره . وكذلك كُذِبَ على علىٍّ عليه السلام وغيره من أئمة أهل البيت رضى اللّه عنهم ، كما قد بُيِّنَ هذا وبُسِطَ فى غير هذا الموضع .

وهكذا يكذب قوم من النُسَّاك ومدعى الحقائق على أبى بكر وغيره وأنَّ النبى ﷺ كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره . ثم قد يدَّعون أنهم عرفوها وتكون حقيقتها زندقة وإلحاداً . وكثير من هؤلاء الزنادقة والجُهَّال قد يحتج على ذلك بحديث أبى هريرة : « حفظتُ عن رسول اللّه ﷺ جرابين ، أما أحدهما فبثثته فيكم . وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا الحلقوم » وهذا الحديث صحيح ، لكن الجراب الآخر لم يكن فيه شئ من علم الدين ومعرفة اللّه وتوحيده الذى يختص به أولياؤه ، ولم يكن أبو هريرة من أكابر الصحابة الذين يُخَصون بمثل ذلك لو كان هذا يُخَص به ، بل كان فى ذلك الجراب أحاديث الفتن التى تكون بين المسلمين ، فإنَّ النبى ﷺ أخبرهم بما سيكون من الفتن بين المسلمين ، ومن الملاحم التى تكون بينهم وبين الكفار .

ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك قال ابن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتهدمون البيت [2] وغير ذلك لقلتم :

---

(١) هى صحيفة علقها فى سيفه كتب فيها عن النبى ﷺ أحكام الدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة .

(٢) بل قال أبو هريرة نفسه : لو قلتُ لكم إنكم ستحرقون بيت ربكم وتقتلون ابن نبيكم لقلتم لا أكذب من أبى هريرة . وقد كان قتل الحسين عليه السلام بعد موت أبى هريرة ، وإنما كان يخاف قطع حلقومه من بنى أمية .

كذب أبو هريرة ، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها لأنَّ ذلك مما لا يحتمله رءوس الناس وعوامهم . وكذلك يحتجون بحديث حذيفة بن اليمان وأنه صاحب السر الذى لا يعلمه غيره ، وحديث حذيفة معروف ، لكن السر الذى لا يعلمه غيره هو معرفته بأعيان المنافقين الذين كانوا فى غزوة تبوك . ويقال : إنهم كانوا هموا بالفتك بالنبى ﷺ فأُوحِىَ إلى النبى ﷺ أمرهم ، فأخبر حذيفة بأعيانهم . ولهذا كان عمر لا يُصلِّى إلا على مَن صلى عليه حذيفة ، لأنَّ الصلاة على المنافقين منهى عنها .

● كان سر النبى ﷺ كعلانيته ، وما أخبر به حذيفة :

وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه لما ذكر الفتن وأنه أعلم الناس بها بيَّن أنَّ النبى ﷺ لم يخصه بحديثها ولكن حدَّث الناس كلهم ، قال : « وكان أعلمنا أحفظنا » .

ومما يبيِّن هذا فى السُنَن أنَّ النبى ﷺ كان عام الفتح قد أهدر دم جماعة : منهم عبد الله بن أبى سرح ، فجاء به عثمان إلى النبى ﷺ ليبايعه ، فتوقف عنه النبى ﷺ ساعة ، ثم بايعه وقال : « أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلىَّ وقد أمسكتُ عن هذا فيضرب عنقه » ؟ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، هلاَّ أومأتَ إلىَّ ؟ فقال : « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » ، فهذا ونحوه مما يبيِّن أنَّ النبى ﷺ يستوى ظاهره وباطنه ، لا يُظهر للناس خلاف ما يُبطنه ، كما تدعيه الزنادقة من المتفلسفة والقرامطة وضُلاَّل المتنسكة ونحوهم .

● كلام ابن عربى فى خاتم النبوَّة وخاتم الولاية :

السابع : أنه قال : « ومنا مَن عَلِمَ فلم يقل مثل هذا ، وهو أعلى القول ، بل أعطاه العلم والسكوت ما أعطاه العجز . وهذا هو أعلا عالِم بالله . وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأولياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى

الخاتم . حتى إنَّ الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء . فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، فكيف مَن دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلا » ... إلى قوله : « ولما مثَّل النبى ﷺ النبوَّة بالحائط من اللَّبن ... » .

ففى هذا الكلام من أنواع الإلحاد والكفر وتنقيص الأنبياء والرسل ما لا تقوله لا اليهود ولا النصارى . وما أشبهه فى هذا الكلام بما ذُكِرَ فى قول القائل : « فخَرَّ عليهم السقف من تحتهم » إنَّ هذا لا عقل ولا قرآن . وكذلك ما ذكره هنا من أنَّ الأنبياء والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذى بعدهم هو مخالف للعقل ، فإنَّ المتقدم لا يستفيد من المتأخر . ومخالف للشرع ، فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ الأنبياء والرسل أفضل من الأولياء الذين ليسوا أنبياء ولا رسلاً . وقد يزعم أنَّ هذا العِلم الذى هو عنده أعلى العِلم - وهو القول بوحدة الوجود ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق - وهو تعطيل الصانع حقيقة وجحده ، وهو القول الذى يظهره فرعون . فلم يكفه زعمه أنَّ هذا حق ، حتى زعم أنه أعلا العِلم ، ولم يكفه ذلك حتى زعم أنَّ الرسل إنما يرونه من مشكاة خاتم الأولياء . فجعل خاتم الأولياء أعلم باللّه من جميع الأنبياء والرسل ، وجعلهم يرون العلم با للّه من مشكاته .

ثم أخذ يبيِّن ذلك فقال : « فإنَّ الرسالة والنبوَّة - أعنى نبوَّة التشريع ورسالته - ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً . فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء » ، وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبى ﷺ

نبياً ورسولاً فإنَّ هذا كفر ظاهر ، فزعموا أنه إنما تنقطع نبوَّة التشريع ورسالته ، يعنى وأما نبوَّة التحقيق ورسالة التحقيق - وهى الولاية عندهم - فلم تنقطع ، وهذه الولاية عندهم هى أفضل من النبوَّة والرسالة ، ولهذا قال ابن عربى فى بعض كلامه :

مقام النبـــوَّة فـــى برزخ فويق الرسول ودون الولى

وقال فى الفصوص فى « كلمة عزيرية » : « فإذا سمعتَ أحداً من أهل الله تعالى يقول أو يُنقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوَّة ، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه ، أو يقول : إنَّ الولى فوق النبى والرسول ، فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد ، وهو أنَّ الرسول عليه السلام من حيث هو ولى أتم منه من حيث هو نبى ورسول ، لا أنَّ الولى التابع له أعلا منه ، فإنَّ التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه [1] ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له » . وإذا حوققوا على ذلك قالوا : إنَّ ولاية النبى فوق نبوَّته ، وإن نبوَّته فوق رسالته ، لأنه يأخذ بولايته عن الله ، ثم يجعلون مثل ولايته ثابته لهم ، ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته ، وأنَّ ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذى ادعوه .

• ما أخطأ فيه الحكيم الترمذى فى فرية خاتم الأولياء :

وفى هذا الكلام أنواع قد بيَّناها فى غير هذا الموضع ..

منها : أنَّ دعوى المدَّعى وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له ، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبد الله محمد بن على

---

(١) بهامش الأصل ما نصه : قوله : « فيما هو تابع له فيه » ، كأنه يريد ما يزعم من أنه تابع للنبى ﷺ فى الشرع الظاهر . وأما الباطن فلا ، لأنه يزعم أنَّ خاتم الأنبياء وجميع الأنبياء والرسل يأخذون من مشكاته ، فهو عند نفسه أعلى منهم فى ذلك . قبَّحه الله . انتهى من خط الشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى رحمه الله .

الترمذى الحكيم [1] فى كتاب « ختم الولاية » ، وقد ذكر فى هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط مخالف للكتاب والسُنَّة والإجماع ، وهو رحمه الله تعالى وإن كان فيه فضل ومعرفة ومن الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة ، ففى كلامه من الخطأ ما يجب رده ومن أشنعها ما ذكره فى ختم الولاية ، مثل دعواه فيه أنه يكون فى المتأخرين مَن درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر وغيرهما. ثم إنه تناقض فى موضع آخر لما حكى عن بعض الناس أنَّ الولى يكون منفرداً عن الناس ، فأبطل ذلك واحتج بأبى بكر وعمر وقال : يلزم هذا أن يكون أفضل من أبى بكر وعمر ، وأبطل ذلك .

ومنها : أنه ذكر فى كتابه ما يُشعر أنَّ ترك الأعمال الظاهرة ولو أنها التطوعات المشروعة أفضل فى حق الكامل ذى الأعمال القلبية ، وهذا أيضاً

---

(١) الحكيم الترمذى - وهو غير الترمذى المحدِّث - : محمد بن على ، فقيه ومتصوف ومحدِّث خراسانى ، ألَّف كتاب « ختم الولاية » فنفى من ترمذ واتهم بالزندقة ، له « الرياضة وأدب النفس » و « نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول » ، و « النهج » - توفى عام ٣٢٠ هـ .

وكان الترمذى أول مَن عقد مقارنة بين النبوَّة والولاية ، متأثراً بما اطلع عليه من مسائل اللاهوت والفلسفة ، وقد انتهت أبحاثه ومقارناته إلى اختراع ضخم هو القول بوجود « خاتم الأولياء » ، ولذلك وقفت الولاية بجوار النبوَّة بهذا اللقب الذى يعادل صفة « خاتم النبيين » ، وقد احتاط الترمذى فاختار لمقام ختم الولاية عيسى عليه السلام .

ولم يكد هذا الاختراع يستقر فى الأرض حتى تهافت الصوفية عليه من كل حدب ، مدعياً كل منهم حقه فى أن يكون هو « خاتم الأولياء » هذا !

وقد خشى ابن عربى أن تفلت منه هذه الدرجة ، فلم ينقطع عن التأكيد لأتباعه بأنه المختص من دون الناس بهذا المقام ، وزعم أنه أقيم له فى هذه المناسبة حفل كبير ، نُصِبَ له فيه كرسى بين يدى الله ، ومن حوله عظماء الملائكة والأنبياء ... إلى آخر هذا الهذيان !!

وكان إبراهيم الدسوقى يقول - كما حكى عنه الشعرانى - : « أنا موسى فى مناجاته ، وأنا علىّ فى حملاته ، أنا كل ولى فى الأرض ، أنا فى السماء شاهدتُ ربى ، وعلى الكرسى خاطبته » .. وهكذا ... إلى أن زعم أن رسول الله ﷺ قال له : « يا إبراهيم ، أنت نقيب على الأولياء » !

(البلتاجى)

خطأ عند أئمة الطريق ، فإنَّ أكمل الخلق رسول الله ﷺ ، وخير الهَدى هَدى محمد ﷺ ، وما زال محافظاً على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنية إلى مماته .

ومنها : ما ادعاه من خاتم الأولياء الذى يكون فى آخر الزمان وتفضيله وتقديمه على مَن تقدم من الأولياء ، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء ، وهذا ضلال واضح . فإنَّ أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة . وخير القرون قرنه ﷺ كما فى الحديث الصحيح : « خير القرون القرن الذين بعثتُ فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وفى الترمذى وغيره أنه قال فى أبى بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » . قال الترمذى : حديث حسن ، وفى صحيح البخارى عن علىّ عليه السلام أنه قال له ابنه : يا أبت ، مَن خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : « يا بنى ، أبو بكر » قال : ثم مَن ؟ قال : « ثم عمر » ، وروى بضع وثمانون نفساً عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » .

وهذا باب واسع وقد قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، وهذه الأربعة هى مراتب العباد : أفضلهم الأنبياء ثم الصدِّيقون ثم الشهداء ثم الصالحون . وقد نهى النبى ﷺ أن يُفَضِّل أحد منا نفسه على يونس بن متى مع قوله : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (٣) ، تنبيهاً على أنَّ غيره أولى أن لا يُفَضِّل أحدٌ نفسه عليه . ففى صحيح البخارى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم أنى خير من يونس بن متى » ،

---

(١) النساء : ٦٩ (٢) القلم : ٤٨ (٣) الصافات : ١٤٢

وفى صحيح البخارى أيضاً عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما ينبغى لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى » - وفى لفظ : « أن يقول : أنا خير من يونس ابن متى » ، وفى البخارى أيضاً عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « مَن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال - يعنى رسول اللّه - : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وفى الصحيحين عن ابن عباس عن النبى ﷺ - وفى لفظ : فيما يرويه عن ربه : « لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ... وهذا فيه نهى عام .

وأما ما يرويه بعض الناس : « لا تُفضِّلونى على يونس بن متى » ويفسره باستواء حال صاحب المعراج وصاحب الحوت ، فنقل باطل وتفسير باطل . وقد قال النبى ﷺ : « اثبت حِراء ، فما عليك إلا نبى أو صِدِّيق أو شهيد » وأبو بكر أفضل الصِدِّيقين .

• بيان كلام اللّه ورسوله لأولياء اللّه ودرجاتهم :

ولفظ خاتم الأولياء لا يوجد فى كلام أحد من سَلَف الأمة ولا أئمتها ، ولا له ذكر فى كتاب اللّه ولا سُنَّة رسوله . وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقى ، فإنَّ اللّه يقول : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّه لَا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ... الآية [1] فكل مَن كان مؤمناً « تقياً » كان للّه ولياً ، وهم على درجتين : السابقون المقرَّبون ، وأصحاب اليمين المقتصدون ، كما قسَّمهم اللّه تعالى فى سورة فاطر ، وسورة الواقعة ، والإنسان ، والمطففين .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « يقول اللّه تعالى : مَن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بمثل

---

(١) يعنى الآية التى بعد هذه المفسرة للأولياء : بالمؤمنين المتقين - والآية من سورة يونس : ٦٢

أداء ما افترضتُ عليه ، وما يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وما ترددتُ عن شئ أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت واكره مساءته ، ولا بد له منه » ، فالمتقربون إلى الله بالفرائض هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين ، والمتقربون إليه بالنوافل التى يحبها بعد الفرائض هم السابقون المقرَّبون ، وإنما تكون النوافل بعد الفرائض . وقد قال أبو بكر الصدِّيق فى وصيته لعمر بن الخطاب : « اعلم أنَّ لله عليك حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنها لا تُقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة » .

والاتحادية يزعمون أنَّ قُرَب النوافل يوجب أن يكون عين الحق عين أعضائه ، وأنَّ قُرَب الفرائض يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله . وهذا فاسد من وجوه كثيرة ، بل كفر صريح كما بيَّناه فى غير هذا الموضع . وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقى فى الدنيا ، فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ولا أكملهم ، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم ، فإنه كلما كان الولى أعظم إختصاصاً بالرسول وأخذاً عنه وموافقة له كان أفضل ، إذ الولى لا يكون ولياً لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً . فعلى قَدْرِ المتابعة للرسول يكون قَدْر الولاية لله .

• أبو بكر فعمر أفضل الأولياء ، وإلهام عمر وعدم عصمته :

والأولياء وإن كان فيهم محدَّث كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن فى أمتى فعمر » ، فهذا الحديث يدل على أنَّ أول المحدَّثين من هذه الأمة عمر ، وأبو بكر أفضل منه ، إذ هو الصدِّيق والمحدَّث ، وإن كان يُلهم ويُحدَّث من جهة الله تعالى فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنَّة فإنه ليس بمعصوم كما قال أبو الحسن الشاذلى : قد ضُمِنَتْ لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنَّة ولم تُضمن لنا العصمة فى

الكشوف والإلهام . ولهذا كان عمر بن الخطاب وقّافاً عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصدِّيق يبيِّن أشياء تخالف ما يقع له كما بُيِّنَ له يوم الحديبية ويوم موت النبى ﷺ ويوم قتال مانعى الزكاة وغير ذلك ، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة ، فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول وترد عليه امرأة من المسلمين قوله وتبيِّن له الحق فيرجع إليها ويدع قوله كما قدَّر الصداق ، وربما يرى رأياً فيُذكر له حديث عن النبى ﷺ فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السُنَّة عمن هو دونه فى قضايا متعددة ، وكان يقول القول فيقال له : أصبتَ فيقول : ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأه . فإذا كان هذا إمام المحدَّثين ، فكل ذى قلب يحدِّثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ، فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم وإن طائفة تدَّعى أنَّ الولى محفوظ وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة ، والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسُنَّة والإجماع ، ولهذا اتفق المسلمون على أنَّ كل أحد من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ وإن كانوا متفاضلين فى الهُدى والنور والإصابة ، ولهذا كان الصدِّيق أفضل من المحدَّث ، لأن الصدِّيق يأخذ من مشكاة النبوَّة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً ، وأما المحدَّث فيقع له صواب وخطأ ، والكتاب والسُنَّة تميِّز صوابه من خطئه . وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسُنَّة ، لا بد لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول ، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل وإن كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم .

ومعلوم أنَّ السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية ، فهم أعظم إيماناً وتقوى . وأما آخر الأولياء ، فلا يحصل له مثل ما حصل لهم .

والحديث الذى يروى : « مَثَل أُمتى كمثل الغيث لا يُدرى أوله خير أو آخره » قد تكلم فى إسناده ، وبتقدير صحته إنما معناه بما فى آخر الأمة مَن يقارب

أولها [1] ، حتى يشتبه على بعض الناس أيهما خير كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب . مع القطع بأنَّ الأول خير من الآخر ولهذا قال : « لا يُدرى » ومعلوم أنَّ هذا السلب ليس عاماً لها فإنه لا بد أن يكون معلوماً أيهما أفضل .

• إدعاء مرتبة خاتم الأولياء الوهمية كثير من المضلين :

ثم إنَّ هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له ، وصار يدَّعيها لنفسه أو لشيخه طوائف ، وقد ادعاها غير واحد ولم يدعها إلا مَن فى كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى ، كما ادعاها صاحب الفصوص ، وتابعه صاحب الكلام فى الحروف ، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق ، وآخر كان يزعم أنه المهدى الذى يزوج بنته بعيسى ابن مريم ، وأنه خاتم الأولياء . ويدَّعى هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده ، كما قد يدَّعى المدَّعى منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى فى المسيح .

• بطلان زعمهم أنَّ الولى يأخذ عن الله بلا واسطة :

ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أنَّ الولى يأخذ عن الله بلا واسطة ، والنبى يأخذ بواسطة الملك ، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة ، وهذا باطل وكذب ، فإنَّ الولى لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه ، وإذا كان محدَّثاً قد أُلقى إليه شئ وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنَّة .

وتكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه : من وراء حجاب - كما كلَّم موسى ، وبإرسال رسول - كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء ، وبالإيحاء ، وهذا فيه للولى نصيب ، وأما المرتبتان الأوليان فإنهما للأنبياء خاصة ، والأولياء الذين قامت

---

(١) فيه معنى آخر ، وهو أنَّ هذا الخير فى المتأخر نسبى وهو أنَّ القليل منه يُعَدُّ كثيراً بالنسبة إلى فساد زمنه . ويدل عليه أحاديث : منها أنه عندما يجاهر الناس بالزنا فى الطرق يقول قائلهم : ما ضرَّ هذين لو استترا وراء هذا الجدار - وهو يُعد كأبى بكر وعمر فيكم .

عليهم الحُجَّة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله اليهم ، ولو لم يكن إلا عرضه على ما جاء به الرسول [1] ، ولن يصلوا فى أخذهم عن الله إلى مرتبة نبى أو رسول ، فكيف يكونون آخذين عن الله واسطة ويكون هذا الأخذ أعلى وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم كما نزلت على الأنبياء ، وهذا دين المسلمين واليهود والنصارى .

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية .. فبنوا على أصلهم الفاسد : أنَّ الله هو الوجود المطلق الثابت لكل موجود ، وصار ما يقع فى قلوبهم من الخواطر - وإن كانت من وساوس الشيطان - يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن الله بلا واسطة ، وأنهم يكلَّمون كما كُلِّم موسى بن عمران ، وفيهم مَن يزعمون أنَّ حالهم أفضل من حال موسى بن عمران ، لأنَّ موسى سمع الخطاب من الشجرة وهم - على زعمهم - يسمعون الخطاب من حى ناطق .. كما يُذكر عن صاحب الفصوص أنه قال :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

• إثبات أهل السُنَّة رؤية الرب فى الآخرة ، ومخالفة الجهمية والاتحادية :

وأعانهم على ذلك ما اعتقدوه من مذاهب الجهمية وأتباعهم الذين يزعمون أنَّ تكليم الله لموسى إنما كان من جنس الإلهام ، وأنَّ العبد قد يرى الله فى الدنيا إذا زال عن عينه المانع إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد ، وإنما الحجاب متصل به ، فإذا ارتفع شاهَدَ الحق ، وهم لا يشاهدون إلا ما يتمثلونه من الوجود المطلق الذى لا حقيقة له إلا فى أذهانهم ، ومن الوجود المخلوق . فيكون الرب المشهود عندهم الذى يخاطبهم - فى زعمهم - لا وجود له إلا فى

---

(١) كذا .. ولعل جواب « لو » سقط من الناسخ أو حُذِفَ للعلم به . وفيه أنهم يعترفون بهذا الأخذ لأحكام التشريع الظاهرة دون الحقائق الباطنة التى يدَّعونها ويُطلقونها على فلسفتهم وخيالاتهم الباطلة .

أذهانهم أو لا وجود له إلا وجود المخلوقات . هذا هو التعطيل للرب تعالى ولكتبه ولرسله ، والبدع دهليز الكفر والنفاق ، كما أنَّ التشيع دهليز الرفض ، والرفض دهليز القرمطة والتعطيل ، فالكلام الذى فيه تجهم دهليز الزندقة والتعطيل . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « واعلموا أنَّ أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » ، ولهذا اتفق سَلَف الأُمة وأئمتها على أنَّ اللّه يُرى فى الآخرة ، وأنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه .

وفى رؤية النبى ﷺ ربه كلام معروف لعائشة وابن عباس ، فعائشة أنكرت الرؤية ، وابن عباس ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين . وكذلك ذكر أحمد عن أبى ذر وغيره أنه أثبت رؤيته بفؤاده ، وهذا المنصوص عن ابن عباس وأبى ذر وغيرهما هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السُنَّة ، ولم يثبت عن أحد منهم إثبات الرؤية بالعين فى الدنيا ، كما لم يثبت عن أحد منهم إنكار الرؤية فى الآخرة ، ولكن كلاَ القولين تقول به طوائف من الجهمية ، فالنفى يقول به متكلمة الجهمية ، والإثبات يقول به بعض متصوفة الجهمية كالاتحادية وطائفة من غيرهم ، وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفى والإثبات ، كما يقول ابن سبعين : « عين ما ترى ذات لا ترى ، وذات لا ترى عين ما ترى » . ونحو ذلك ، لأنَّ مذهبهم مستلزم الجمع بين النقيضين ، فهم يقولون فى عموم الكائنات ما قالته النصارى فى المسيح ، ولهذا تنوَّعوا فى ذلك تنوع النصارى فى المسيح .

• تفنيد كفرهم بتفضيل الأولياء على الأنبياء كالفلاسفة :

ومن الأنواع التى فى دعواهم أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من بعض الوجوه ، فإنَّ هذا لم يقله أبو عبد اللّه الحكيم الترمذى ولا غيره من المشايخ المعروفين ، بل الرجل أجَلُ قَدَراً وأعظم إيماناً من أن يفترى هذا الكفر الصريح ، ولكن أخطأ شبراً ، ففرُّعوا على خطئه ماصار كفراً .

وأعظم من ذلك زعمه أنَّ الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء وأخذوا من مشكاته ، فهذا باطل بالعقل والدين ، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر ، والرسل لا يأخذون من غيرهم . وأعظم من ذلك أنه جعلهم تابعين له فى العلم باللّه الذى هو أشرف علومهم ، وأظهر من ذلك أنه جعل العلم باللّه هو مذهب أهل وحدة الوجود القائلين بأنَّ وجود المخلوق هو عين وجود الخالق .

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح درجة بعد درجة . واستشهاده على تفضيل غير النبى عليه بقصة عمر وتأبير النخل ، فهل يقول مسلم أنَّ عمر كان أفضل من النبى ﷺ برأيه فى الأسرى ؟ وأنَّ الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء فى ذلك ؟ ثم ما قنع بذلك حتى قال : فما يلزم الكامل أن يكون له التقديم فى كل علم وكل مرتبة ، وإنما نظر الرجال إلى التقدم فى مرتبة العلم باللّه ، هنالك مطلبهم ..

فقد زعم أنه أعلم باللّه من خاتم الأنبياء ، وأنَّ تقدمه عليه بالعلم باللّه ، وتقدم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط . وهذا من أعظم الكفر الذى يقع فيه غالية المتفلسفة وغالية المتصوفة وغالية المتكلمة الذين يزعمون أنهم فى الأمور العلمية أكمل من الرسل ، كالعلم باللّه ونحو ذلك ، وأنَّ الرسل إنما تقدَّموا عليهم بالتشريع العام الذى جُعِلَ لصلاح الناس فى دنياهم . وقد يقولون : إنَّ الشرائع قوانين عدلية وُضِعَت لمصلحة الدنيا ، فأما المعارف والحقائق والدرجات العالية فى الدنيا والآخرة فيُفضِّلون فيها أنفسهم وطرقهم على الأنبياء وطرق الأنبياء .

وقد عُلِمَ بالاضطرار من دين المسلمين أنَّ هذا من أعظم الكفر والضلال ، وكان من سبب جحد حقائق ما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان باللّه واليوم الآخر وزعمهم أنَّ ما يقوله هؤلاء فى هذا الباب هو الحق ، وصاروا فى أخبار الرسل تارة يُكذِّبونها ، وتارة يُحرِّفونها ، وتارة يُفوِّضونها ، وتارة يزعمون أنَّ الرسل كذبوا لمصلحة العموم .

ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات يُفضّلون الأنبياء والرسل على أنفسهم إلا الغالية منهم كما تقدم ، فهؤلاء من شر الناس قولاً واعتقاداً .

وقد كان عندهم شيخ من أجهل الناس كان يعظمه طائفة من الأعاجم ويقال إنه خاتم الأولياء ، يزعم أنه يفسّر العلم بوجهين ، وأنّ النبى ﷺ إنما فسّره بوجه واحد ، وأنه هو أكمل من النبى ﷺ ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص وأمثال هذا فى هذه الأوقات كثير ، وسبب ضلال المتفلسفة وأهل التصوف والكلام الموافقة لضلالهم ، وليس هذا موضع الإطناب فى بيان ضلال هذا ، وإنما الغرض التنبيه على أنّ صاحب الفصوص وأمثاله قالوا قول هؤلاء .

فأما كفر مَن يفضّل نفسه على النبى ﷺ - كما ذكر صاحب الفصوص - فظاهر ، ولكن من هؤلاء مَن لا يرى ذلك ولكن يرى أنّ له طريقاً إلى الله غير إتباع الرسول ، ويسوّغ لنفسه إتباع تلك الطريق وإن خالف شرع الرسول ، ويحتجون بقصة موسى والخضر .

• بطلان الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة :

ولاحُجّة فيها لوجهين ...

أحدهما : أنّ موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان يجب على الخضر إتباع موسى ، فإنّ موسى كان مبعوثاً إلى بنى إسرائيل ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « إنّ موسى لما سلّم على الخضر قال : وأنّى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه » ، ولهذا قال نبينا ﷺ : « فُضّلنا على الناس بخمس : جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأى رجل أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره ، وأُحلّت لى الغنائم ولم تُحَل لأحد قبلى ، وأعطيتُ الشفاعة »[1] ،

---

(١) لم يذكر الخامسة ، وفى بعض الأحاديث هى : « ونصرتُ بالرعب مسيرة شهر » .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ ... الآية (٢) .

فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، ملوكهم وزهادهم ، الأولياء منهم وغير الأولياء . فليس لأحد الخروج عن مبايعته باطناً وظاهراً ، ولا عن متابعة ماجاء به من الكتاب والسُنَّة فى دقيق ولا جليل ، لا فى العلوم ولا الأعمال ، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى ، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر .

● قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة :

الثانى : أنَّ قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة ، بل الأمور التى فعلها تُباح فى الشريعة ، إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر ، ولهذا لما بيَّن أسبابها لموسى وافقه على ذلك ، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال .

وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع . فإنَّ خرق السفينة مضمونه أنَّ المال المعصوم يجوز للإنسان أن يحفظه لصاحبه بإتلاف بعضه فإنَّ ذلك خير من ذهابه بالكلية ، كما جاز للراعى على عهد النبى ﷺ أن يذبح الشاة التى خاف عليها الموت . وقصة الغلام مضمونها جواز قتل الصبى الصائل ، ولهذا قال ابن عباس : وأما الغلمان ، فإن كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم . وأما إقامة الجدار ففيها فعل المعروف بلا أجرة مع الحاجة إذا كان لذُرية قوم صالحين .

* * *

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأعراف : ١٥٨

● بطلان زعمه أنَّ الحقيقة من حيث يأخذ مَلَك الوحى :

الوجه الثامن : أنه قال : « ولما مثَّل النبى ﷺ النبوَّة بالحائط ... » إلى آخر كلامه ، وهو متضمن أنَّ العلم نوعان :

أحدهما : علم الشريعة وهو يأخذه عن الله كما يأخذ النبى ، فإنه قال : « والسبب الموجب لكونه رآها لَبِنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر وهو موضع اللَّبنة الفضية وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا » .

وهذا الذى زعمه من أنَّ الولى يأخذ عن الله فى السر ما يتبع فيه الرسل كأئمة العلماء مع أتباعهم ، فيه من الالحاد ما لا يخفى على مَن يؤمن بالله ورسله ، فإنَّ هذا يدَّعى أنه أُوتىَ مثل ما أُوتىَ رسل الله ، ويقول إنه أُوحِىَ إلىَّ ولم يوح إليه شئ ، ويجعل الرسل بمنزلة معلمى الطب والحساب والنحو ... وغير ذلك إذا عرف المتعلم الدليل الذى قال به معلمه فينبغى موافقته لمشاركته له فى العلم لا لأنه رسول وواسطة من الله إليه فى تبليغ الأمر والنهى . وهذا الكفر يشبه كفر مسيلمة الكذَّاب ونحوه ممن يدَّعى أنه مشارك للرسول فى الرسالة ، وكان يقول مؤذنه : أشهد أنَّ محمداً ومسيلمة رسولا الله .

والنوع الثانى : علم الحقيقة ، وهو فيه فوق الرسول ، كما قال : هو موضع اللَّبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يُوحِى به إلى الرسول ، فقد ادَّعى أنَّ هذا العلم الذى هو موضع اللَّبنة الذهبية - وهو علم الباطن والحقيقة - هو فيه فوق الرسول لأنه يأخذه من حيث يأخذ الملك العلم الذى يُوحِى به إلى الرسول ، والرسول يأخذه من الملك ، وهو أخذه من فوق الملك ، من حيث يأخذه الملك ، وهذا فوق دعوى مسيلمة الكذَّاب ، فإنَّ مسيلمة لم يدَّع أنه أعلا من الرسول فى علم من العلوم الإلهية ، وهذا ادَّعى أنه فوقه فى العلم بالله .

ثم قال : « فإن فهمتَ ما أشرتُ به فقد حصل لك العلم النافع » . ومعلوم أنَّ هذا الكفر فوق كفر اليهود والنصارى ، فإنَّ اليهود والنصارى لا ترضى أن تجعل أحداً من المؤمنين فوق موسى وعيسى ، وهذا يزعم هو وأمثاله ممن يدَّعى أنه خاتم الأولياء أنه فوق جميع الرسل ، وأعلم باللّه من جميع الرسل ، وعقلاء الفلاسفة لايرضون بهذا وإنما يقول مثل هذا غلاتهم ، وأهل الحق منهم الذين هم من أبعد الناس عن العقل والدين .

* * *

• بطلان زعمه أخذ كل من الأنبياء والأولياء عن خاتمهم :

التاسع : قوله : « فكل نبى من لدُن آدم ... » إلى آخر الفصل . تضمن أنَّ جميع الأنبياء والرسل لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم النبيين ، ليوطن نفسه بذلك أنَّ جميع الأنبياء لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، وكلاهما ضلال ، فإن الرسل ليس منهم مَن يأخذ من آخر إلا مَن كان مأموراً باتباع شريعته كأنبياء بنى إسرائيل والرسل الذين فيهم الذين أُمروا باتباع التوراة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ... الآية [1] .

وأما إبراهيم ... فلم يأخذ عن موسى وعيسى ، ونوح لم يأخذ عن إبراهيم ، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لم يأخذوا عن محمد وإن بشَّروا به وآمنوا به كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ ... الآية [2] ، قال ابن عباس : « ما بعث اللّه نبياً إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ، ولئن بُعِثَ وهم أحياء لينصرنه » .

* * *

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) آل عمران : ٨١

• الأحاديث الموضوعة فى سبق خلقه - صلى الله عليه وسلم - لولادته فى الدنيا :

العاشر : قوله : « فإنَّ تحقيقه موجود ، وهو قوله : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » بخلاف غيره من الأنبياء ، وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين » - كذب واضح مخالف لإجماع أئمة الدين ، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد ، فإنَّ الله عَلِمَ الأشياء وقدَّرها قبل أن يكونَّها ، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق فى ذلك بين الأنبياء وغيرهم ، ولم تكن حقيقته ﷺ موجودة قبل أن يُخلق إلا كما كانت حقيقة غيره ، بمعنى أنَّ الله علمها وقدَّرها ، لكن كان ظهور خبره واسمه مشهوراً أعظم من غيره ، فإنه كان مكتوباً فى التوارة والإنجيل وقبل ذلك ، كما روى الإمام أحمد فى مسنده عن العرباض بن سارية ، عن النبى ﷺ قال : « إنى لعبد الله مكتوب خاتم النبيين وإنَّ آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبُشرى عيسى ، ورؤيا أُمى ، رأت حين ولدتنى كأنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ، وحديث ميسرة الفجر : قلتُ يا رسول الله ، متى كنتَ نبياً ؟ - وفى لفظ : متى كُتِبتَ نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » وهذا لفظ الحديث .

وأما قوله : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » فلا أصل له ، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ وهو باطل ، فإنه لم يكن بين الماء والطين ، إذ الطين ماء وتراب ، ولكن لما خلق الله جسد آدم قبل نفخ الروح فيه كتب نبوَّة محمد ﷺ وقدَّرها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إنَّ خلق أحدكم يُجعل فى بطن أُمه أربعين يوماً ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مُضغة مثل ذلك ، ثم يُبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح » .

ورُوِيَ أنه كُتِبَ اسمه على ساق العرش ومصاريع الجنة [1] فأين الكتاب والتقدير من وجود الحقيقة ؟ وما يُروى فى هذا الباب من الأحاديث هو من هذا الجنس مثل كونه كان نوراً يسبح حول العرش ، أو كوكباً يطلع فى السماء ... ونحو ذلك - كما ذكره ابن حمويه صاحب ابن عربى ، وذكر بعضه عمر الملا فى « وسيلة المتعبدين » وابن سبعين وأمثالهم ممن يروى الموضوعات المكذوبات باتفاق أهل المعرفة بالحديث . فإنَّ هذا المعنى رووا فيه أحاديث كلها كذب حتى إنه اجتمع بى قديماً شيخ معظم من أصحاب ابن حمويه يسميه أصحابه « سلطان الأقطاب » وتفاوضنا فى كتاب الفصوص وكان معظِّماً له ولصاحبه حتى أبديتُ له بعض ما فيه فهاله ذلك وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث ، فبيَّنتُ له أنَّ هذا كله كذب .

* * *

● بعض مَن كفَّر ابن عربى وجعله ملحداً معطِّلاً :

الحادى عشر : قوله : « وخاتم الولاية كان ولياً وآدم بين الماء والطين » ... إلى قوله : « فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية كنسبة الأولياء والرسل معه » ... إلى آخر الكلام - ذكر فيه ما تقدم من كون رسول الله ﷺ مع هذا الختم المدَّعى - كسائر الأنبياء والرسل معه - يأخذ من مشكاته العلم بالله الذى هو أعلا العلم وهو « وحدة الوجود » ، أنه مقدم الجماعة وسيد ولد آدم فى فتح باب الشفاعة . فعيَّن حالاً خاصاً ما عمم - إلى قوله : « ففاز محمد بالسيادة فى هذا المقام الخاص » . فكذب على رسول الله ﷺ فى قوله : أنه قال : « سيد ولد آدم فى الشفاعة فقط لا فى بقية المراتب » بخلاف الختم المفترَى فإنه سيد فى العلم بالله وغير ذلك من المقامات .

---

(١) أشار بقوله : « روى » إلى أنَّ هذا ضعيف غير صحيح كالذى قبله ، وأما : « كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين » فإنه باطل رواية ومعنى .

ولقد كنت أقول : لو كان المخاطب لنا ممن يُفضِّل إبراهيم أو موسى أو عيسى على محمد ﷺ لكانت مصيبة عظيمة لا يحملها المسلمون ، فكيف بمن يفضل رجلاً من أمة محمد على محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل فى أفضل العلوم ويدَّعى أنهم يأخذون ذلك من مشكاته ؟ وهذا العلم هو غاية الإلحاد والزندقة . وهذا المفضَّل من أضل بنى آدم وأبعدهم عن الصراط المستقيم ، وإن كان له كلام كثير ومصنفات متعددة ، وله معرفة بأشياء كثيرة ، وله استحواذ على قلوب طوائف من أصناف المتفلسفة والمتصوفة والمتكلمة والمتفقهة والعامة ، فإنَّ هذا الكلام من أعظم الكلام ضلالاً عند أهل الكلام والإيمان ، والله أعلم .

* * *

• جَماع أمر ابن عربى وذويه هدم أصل الإيمان :

وقد تبيَّن أنَّ فى هذا الكلام من الكفر والتنقيص بالرسل والاستخفاف بهم والغض منهم والكفر بهم وبما جاءوا به ما لا يخفى على مؤمن ، وقد حدَّثنى أحد أعيان الفضلاء أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى رحمة الله عليه يقول : رأيتُ ابن عربى وهو شيخ نجس يُكذِّب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبى أرسله الله . ولقد صدق فيما قال ، ولكن هذا بعض الأنواع التى ذكرها من الكفر ، وكذلك قول أبى محمد بن عبد السلام : هو شيخ سوء مقبوح كذَّاب يقول بِقِدَم العالَم ولا يُحرِّم فرجاً – هو حق عنه لكنه بعض أنواع ما ذكره من الكفر ، فإنَّ قوله لم يكن قد تبيَّن له حاله وتحقق ، وإلا فليس عنده رب وعالِم كما تقوله الفلاسفة الإلهيون الذين يقولون بواجب الوجود ، وبالعالم الممكن الوجود ، بل عنده وجود العالَم هو وجود الله ، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقاً ولا يقرون بوجود واجب غير العالم كما ذكر الله عن فرعون وذويه ، وقوله مطابق لقول فرعون ، لكن فرعون لم يكن مقراً بالله وهؤلاء يقرون بالله ، ولكن يفسرونه بالوجود الذى أقرَّ به فرعون ، فهم أجهل من فرعون وأضل ، وفرعون أكفر منهم ، فى كفره من العناد والاستكبار ما ليس فى كفرهم ،

كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (١) ، وقال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ (٢) ، وجَماع أمر صاحب الفصوص وذويه هدم أصول الإيمان الثلاثة ، فإنَّ أُصول الإيمان : الإيمان باللّه ، والإيمان برسله ، والإيمان باليوم الآخر .

فأما الإيمان باللّه : فزعموا أنَّ وجوده وجود العالَم ليس للعالَم صانع غير العالَم ، وأما الرسول فزعموا انهم أعلم باللّه منه ومن جميع الرسل ، ومنهم مَن يأخذ العلم باللّه - الذى هو التعطيل ووحدة الوجود - : من مشكاته ، وأنهم يساوونه فى أخذ العلم بالشريعة عن اللّه ، وأما الإيمان باليوم الآخر ... فقد قال :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وبالوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذّة فيها نعيم يباين

● زعم الاتحادية أنَّ العابد والمعبود واحد :

وهذا يُذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال : إنَّ النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها ، وحينئذ فلا خوف ولا محذور ولا عذاب لأنه أمر مستعذَب ، ثم إنه فى الأمر والنهى عنده الآمر والناهى والمأمور والمنهى واحد ، ولهذا كان أول ما قاله فى « الفتوحات المكية » التى هى أكبر كتبه :

الرب حق والعبد حق ... ياليتَ شعرى مَن المكلّف

إن قلتَ عبدٌ فذاك رب ... أو قلتَ ربٌ أنّى يكلّف ؟

وفى موضع آخر : « فذاك ميت » ، رأيته بخطه .

وهذا مبنى على أصله ، فإنَّ عنده ما ثَمَّ عبد ولا وجود إلا وجود الرب فمَن المكلّف ؟ وعلى أصله هو المكلّف كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولاً ،

---

(١) النمل : ١٤ (٢) الإسراء : ١٠٢

وكما قال ابن الفارض [1] فى قصيدته التى نظمها على مذهبهم وسماها نظم السلوك :

---

(١) ابن الفارض : هو عمر بن الفارض ، شاعر صوفى من القائلين بوحدة الوجود ، ولد سنة ٥٧٦ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن بمصر ، اشتهر بقصيدته الثائية التى نظمها شرحاً لفصوص الحكم لابن عربى .

يقول عنه الإمام برهان الدين البقاعى (ت ٨٨٥ هـ) : « إنه لم يوجد لأحد من أهل عصره المخبرين بحاله ثناء عليه بعدالة ولا ولاية ، ولا ظهر عنه علم من العلوم الدينية ، ولا مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة واحدة على كثرة شعره ، فدل ذلك على سوء طويته ، ونقل القدح فيه نقلاً قطعياً عن محبيه ومبغضيه ، فقد قال شراح ثائيته التابعون لطريقته والمنتقدون عليه من أهل السُنّة : « إنّ أهل زمانه كلهم من أهل الشريعة وأرباب الطريقة رموه بالفسق والإباحة والزندقة على الإجمال » .

وقد رماه بالزندقة بشهادة الكتب الموثوق بها نحو من أربعين عالماً ، هم دعائم الدين من عصره .

فمن أهل عصره : سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعى ، والحافظ الفقيه الأصولى تقى الدين بن الصلاح الشافعى ، والإمام الفقيه المحدّث الصوفى قطب الدين القسطلانى الشافعى ، والإمام نجم الدين أحمد بن حمدان الحنبلى (ت ٦٩٥ هـ) ، وشرح التائية وبيّن عواره فيها بيتاً بيتاً ، وأبو على عمر بن خليل الكونى المالكى ، والشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكى .

كما رماه بالزندقة ممن يليهم : قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد الصوفى الشافعى ، وقاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز الشافعى ، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، والشرف عيسى الزواوى المالكى ، والسعد الحارثى الحنبلى ، والإمام أبو حيان الشافعى ، وأبو أمامة بن النقاش الشافعى ، والحافظ شمس الدين الموصلى الشافعى ، وشيخ الإسلام تقى الدين السبكى الشافعى ، وشيخ الفقهاء الزين الكتنانى الشافعى ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحنبلى .

وممن يليهم : الكمال جعفر الأدفوى الشافعى (ت ٧٤٨ هـ) - ونقل ذم التائية عن العلماء - والبرهان إبراهيم السفاقسى المالكى ، والشهاب أحمد بن أبى حجلة الحنفى ، والحافظ شمس الدين الذهبى الشافعى ، والحافظ عماد الدين بن كثير الشافعى .

وممن يليهم : العلاّمة شمس الدين محمد العيزرى الشافعى (ت ٨٠٨ هـ) ، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وعلاّمة زمانه علاء الدين محمد البخارى الحنفى الصوفى - =

إليَّ رسولاً كنت منى مرسلاً وذاتى بآياتى علىَّ استدلت

ومضمونها هو القول بوحدة الوجود ومذهب ابن عربى وابن سبعين وأمثالهم كما قال :

لها صلاتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لى صلّت
كلانا مُصَلٍّ عابد ساجد إلى حقيقة الجمع فى كل سجدة (١)
وما كان لى صلّى سواى فلم تكن صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة

= وكفَّر بعض مَن قال بحضرته - وهو شمس الدين البساطى - : إنَّ ذلك يؤول ، وما أنكر عليه أحد ممن كان حاضره من العلماء تكفيره له ، ولا غيرهم من أهل زمانه من مذهب من المذاهب ، وما وسع المكفَّر إلا البراءة من الاتحادية ومذهبهم .

ورماه بالزندقة ممن يليهم : قاضى القضاة ولى الدين العراقى ، وقاضى القضاة حافظ عصره شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى ، وقاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى ، وقاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى ، وعلاَّمة اليمن بدر الدين حسين بن الأهدل الشريف الشافعى الصوفى ، كما شهد بهذا النقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم ، ومصنفات غيرهم من العلماء ، وهى شرح التائية لابن حمدان ، وديباجة ديوان ابن الفارض ، ولحن العوام لابن خليل ، وتفسير أبى حيان البحر والنهر ، والفرقان لابن تيمية ، وقصيدة السفاقسى التى يقول فيها :

وكالششترى القونوى ابن فارض فلا برد اللّه ثراهم ، ولا أسقى

والقونوى الذى ذكره ، صدر الدين صاحب ابن عربى ، وكتاب ابن أبى حجلة ، والميزان ولسانه لابن حجر ، والتاريخ لابن كثير بخطه ، وناصحة الموحدين للعلاء البخارى ، والفتاوى المكية للعراقى ، وتاريخ العينى ، وشرح التائية للبساطى ، وكشف الغطاء لابن الأهدل ، فهذه ستة عشر كتاباً وقصيدة شهدت بكفره من بضع وعشرين عالماً ، هم أعيان كل عصر .

وممن كفَّره : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وقاضى القضاة محقق زمانه شمس الدين القاياتى ، ونادرة وقته عز الدين بن عبد السلام القدسى الشافعى ، والعلاَّمة علاء الدين القلقشدى الشافعى ، والشيخ يحيى العجيسى المالكى ، والعلاَّمة شمس الدين البلاطنيسى الشافعى شيخ الشاميين فى وقته ، وشيخ الإسلام عبد الأول السمرقندى الحنفى ابن صاحب الهداية ، والعلاَّمة الصوفى كمال الدين ابن إمام الكاملية الشافعى ، والعلاَّمة شهاب الدين بن قر الشافعى ، والعلاَّمة أبوالقاسم النويرى المالكى ، كما شهد بذلك الثقات من أصحابهم .

وانظر « تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى » ، للعلاَّمة برهان الدين البقاعى - نشر دار التقوى ص ٢١٤ - ٢١٧ بتصرف ، و جـ ١ هامش ص ١١٤ من هذا الكتاب . (البلتاجى)

(١) البيت فى ديوانه الذى بين الأيدى هكذا :

كلانا مُصَلٍّ واحد ناظر إلى حقيقته بالجمع فى كل سجدة

إلى قوله :

وما زلتُ إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبتِ

... ومثل هذا كثير والله أعلم .

● كبار العلماء الذين طعنوا فى ابن عربى :

وحدّثنى صاحبنا الفقيه الصوفى أبو الحسن على بن قرياص أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلانى فوجده يصنّف كتاباً فقال : ما هذا ؟ فقال : هذا فى الرد على ابن سبعين [1] وابن الفارض وأبى الحسن الجربى والعفيف التلمسانى [2] .

وحدّثنى عن جمال الدين بن واصل وشمس الدين الأصبهانى أنهما كانا ينكران كلام ابن عربى ويبطلانه ويردان عليه ، وأنّ الأصبهانى رأى معه كتاباً من كتبه فقال : إن اقتنيتَ شيئاً من كتبه فلا تجىء إلىّ ، أو ما هذا معناه .

وأنّ ابن واصل لما ذكر كلامه فى التفاحة التى انقلبت عن جوار معلم معها فقال : والله الذى لا إله إلاّ هو يكذب . ولقد بَرّ فى يمينه .

وحدّثنى صاحبنا الفاضل أبو بكر بن سالار ، عن الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد شيخ وقته ، عن الإمام أبى محمد بن عبد السلام أنهم سألوه عن ابن عربى ، لما دخل مصر ، فقال : شيخ سوء مقبوح يقول بقِدَم العالَم ولا يُحرِّم فرْجاً .

وكان تقى الدين يقول : هوصاحب خيال واسع . حدّثنى بذلك غير واحد من الفقهاء ممن سمع كلام ابن دقيق العيد .

وحدّثنى ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال : كان يستحل الكذب ، هذا أحسن أحواله .

---

(١) للتعريف بابن سبعين انظر جـ ١ هامش ص ١١٤ ، وهامش ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) للتعريف بالتلمسانى انظر جـ ١ هامش ص ١١٢ ، وهامش ص ٢٨ من هذا الجزء .

وحدَّثنى الشيخ العالِم العارف كمال الدين المراغى شيخ زمانه أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء فى التوحيد قال : قرأتُ على العفيف التلمسانى من كلامهم شيئاً فرأيته مخالفاً للكتاب والسُنَّة ، فلما ذكرتُ ذلك له قال : القرآن ليس فيه توحيد ، بل القرآن كله شِرك ، ومَن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد ، قال : فقلت له : ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأُخت والكل واحد ؟ قال : لا فرق بين ذلك ، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً فقلنا : هو حرام عليهم عندهم ، وأما عندنا فما ثَمَّ حرام .

وحدَّثنى كمال الدين بن المراغى أنه لما تحدَّث مع التلمسانى فى هذا المذهب قال : وكنتُ أقرأ عليه فى ذلك فإنهم كانوا قد عظَّموه عندنا ونحن مشتاقون إلى معرفة « فصوص الحكم » ، فلما صار يشرحه لى أقول هذا خلاف القرآن والأحاديث ، فقال : ارم هذا كله خلف الباب واحضر بقلب صاف حتى تتلقى هذا التوحيد - أو كما قال - ثم خاف أن أشيع ذلك عنه فجاء إلىَّ باكياً وقال : استر عنى ما سمعته منى .

وحدَّثنى أيضاً كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبى العباس الشاذلى تلميذ الشيخ أبى الحسن فقال عن التلمسانى : هؤلاء كفار .. هؤلاء يعتقدون أنَّ الصنعة هى الصانع ، قال : وكنتُ قد عزمتُ على أن أدخل الخلوة على يده فقلت : أنا لا آخذ عنه هذا وإنما أتعلم منه أدب الخلوة ، فقال لى : مثلك مثل مَن يريد أن يقترب إلى السلطان على يد صاحب الأتون والزبَّال ، فإذا كان الزبَّال هو الذى يُقرِّبه إلى السلطان ، كيف يكون حاله عند السلطان ؟

وحدَّثنا أيضاً قال : قال لى قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد : إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة ، فقلت له : ففى بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد وهو شر من مذهب الفلاسفة . فقال : قول هؤلاء لا يقوله عاقل ، بل كل عاقل يعلم فساد قول

هؤلاء - يعنى أنَّ فساده ظاهر فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء بخلاف مقالة الفلاسفة فإنَّ فيها شيئاً من المعقول وإن كانت فاسدة .

وحدَّثنى تاج الدين الأنبارى الفقيه المصرى الفاضل أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيتُ ابن عربى شيخاً مخضوب اللحية وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله الله ، وكل نبى أرسله الله .

وحدَّثنى الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال : كنتُ وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربى والخسرو شاهى أنَّ كلاهما زنديق - أو كلاماً هذا معناه .

وحدَّثنى عن الشيخ إبراهيم الجعبرى أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد :

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ما قد لقيتُ فقد ضيَّعتُ أيامى

أمنية ظفـرت نفسـى بها زمنـاً واليوم أحسبها أضغاثُ أحلامِ

وحدَّثنى الفقيه الفاضل تاج الدين الزنبارى أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبرى يقول : رأيتُ فى منامى ابن عربى وابن الفارض وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ويقولان : كيف الطريق ؟ أين الطريق ؟

وحدَّثنى شهاب الدين المزى عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين ابن الحكيم عن أبيه أنه قال : قدمتُ دمشق فصادفتُ موت ابن عربى فرأيت جنازته كأنما ذُرَّ عليها الرماد فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء - أو قال : فعلمت أنَّ هذا .

وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكورانى أنه كان يقول : ابن عربى شيطان .

وعنه أنه كان يقول عن الحريرى : إنه شيطان .

وحدَّثنى شهاب الدين عن القاضى شرف الدين الباربلى أنَّ اباه كان ينهاه عن كلام ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين .

* * *